عبد الحميد كشك

في رحاب التفسير

المكتب المصري الحديث

عبد الحميد كشك

في رحاب التفسير

المجلد الأول

المكتب المصري الحديث

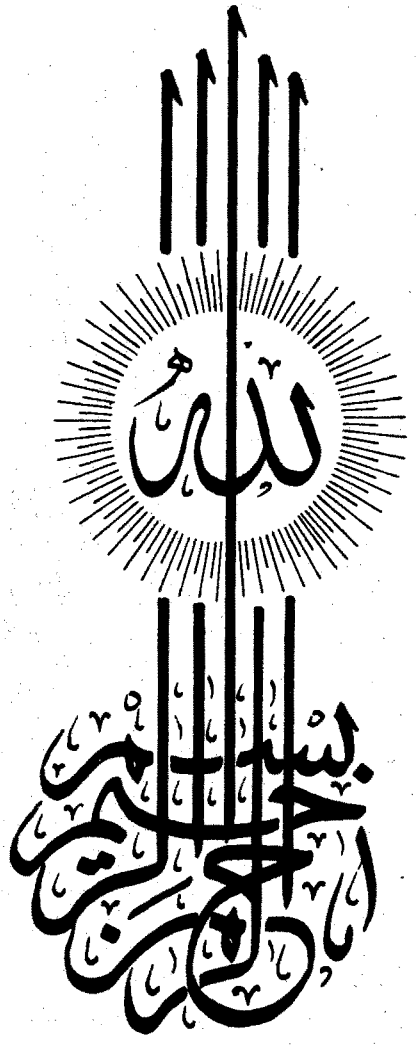

عن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال :

قال النبى ﷺ : (إن أفضلكم من تعلّم القرآن وعَلّمه) .

رواه البخارى

فى رحاب التفسير

ظل الداعية الإسلامى الشيخ عبد الحميد كشك لأعوام عديدة يلتقى بأحبائه من المسلمين ، من فوق منبره فى مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم ، فى خطب الجمعة ، وفى دروسه وفتاويه التى كانت تشغل كل أيام الأسبوع ، فتنشرح الصدور ، وتصفو الأفئدة وتتطهر النفوس وتتغذى العقول والأرواح .. وتتنزل السكينة والرحمة ...

واشتهر مجلس الشيخ ، وذاع صيته حتى بلغ آفاق الأرض إلى عنان السماء .. وقصده المسلمون من القاهرة وما حولها من مدن وقرى .. وأتاه الزائرون من أنحاء العالم الإسلامى كله ، وفى يوم الجمعة يمتلىء المسجد على سعته وكثرة مبانيه فيضيق بمن فيه من المصلين فيؤمون ما يحيط المسجد من شوارع وطرقات .. وما أن ينتهى الشيخ من خطبته وما يليها من درس وموعظة حتى تتلقف الأيدى الأشرطة كى تسمعها النساء فى البيوت ، ولكى تطير إلى قارات الدنيا الست تنقل للمسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ما قاله الشيخ فلا يحرمون من نفعه .

وفى سبتمبر ١٩٨١ حيل بين الشيخ ومنبره .. ومنع من أن يلقى الأحبة .. فى دروس أو فتاوى .. فكانت الضارة النافعة .. فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا .. وعجيبا لأمر المؤمن ان أمره كله له خير .. فعكف الشيخ على القرآن الكريم .. مأدبة الله ، الذى لا تنقضى عجائبه ولا تنفد أنواره التى تبدد الظلمات .. يحيى به لياليه يطالع آياته .. ويعاينها ويفسرها .. تفسيرا يضيف إلى كل ما سبقه كثيراً ، تفسيرا يتجه إلى القلوب فيفك مغاليقها ويفتح أقفالها ، فى عبارات جزلة ومعان مضيئة تخاطب مسلم اليوم فتأخذه مما يكتنفه من ظلمات ركام الجاهلية إلى نور الله وشفاء لما فى الصدور .. فتتبدد الظلمة .. وتنقشع الغمة ..

وعاش الشيخ أيامه فى هذه الأعوام الستة — ولا يزال — فى رحاب التفسير عاكفاً عليه فى بيته ، رافضا كل عرض بسفر أو هجرة ، مهما برق لمعانه أو اشتد إغراؤه ، أو زاد إلحاحه .. فقد استشعر لذة القرآن وأظلته نعماؤه .. وأحس أن الأقدار قد هيأت له هذه الظروف للاضطلاع بهذه المهمة التى تحتاج لهذا التفرغ الكامل ..

وعهد إلينا الشيخ بما انتهى منه .. وهو لا يزال يمضى فى طريقه يشق عباب البحر وشاطىء النهاية يلوح من بعيد .. يزداد منه اقترابا كل يوم .. طالبا منا أن نقدمه إلى المسلمين فى كل مكان كما قدمنا من قبل مكتبته التى انتشرت فى كل مكان .. وسخر الله لنشرها حتى الكفار من الموارنة والملحدين يزوّرون طبعاتها ويصلون بها إلى ما لم نصل إليه من بقاع الأرض ، قاصدين لعاعات الدنيا التى ما قصدناها .. فيكتب لشيخنا ولنا الأجر النافع بفضله وجوده ومَنّه وكرمه .

نسأل الله العلى القدير أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم مبرأ من كل ما عداه من أغراض ، فيكون لشيخنا ولنا قائدا إلى الجنة وشفيعا يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ، ونورا لنا يوم ندخل قبورنا وأن ينفع به من قرأه من المسلمين . آمين يارب العالمين .

احمد يحيى

بســـــم الله الرحمن الرحيم

المقـــدمة

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد ألا إله إلا الله ولىّ الصالحين . ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا ﴾ . ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾[1] .

سبحانه هو اللطيف بعباده ؛ ومن مظاهر لطفه بخلقه أن وهبهم العقل الذى يميزون به بين الخبيث والطيب ، والضار والنافع ، والظلمات والنور . وأرسل إليهم ﴿ رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حُجة بعد الرسل ﴾[2] . وأنزل كتبًا تهدى السالكين إلى طريق الرشاد والسداد ، وعلى رأس هذه الكتب « القرآن العظيم » . نزل به أعظم ملك هو الروح الأمين ، فى أعظم ليلة هى ليلة القدر ، فى أعظم شهر هو شهر رمضان ، من أعظم مكان هو أم الكتاب ، فى أعظم بلد « مكة » ، بأشرف لغة ، على أعظم نبى هو سيد الأولين والآخرين ، الذى مدحه ربه بما منحه فقال : ﴿ وإن لك لأجراً غير ممنون * وإنك لعلىٰ خلق عظيم ﴾[3] .

وقال عنه مبيناً الحكمة من إرساله : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾[4] . وقال عن أتباعه : ﴿ ورحمتى وسِعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾[5] .

وقد أمره مولاه ومصطفيه أن يعلن عموم رسالته فقال : ﴿ قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السمٰوات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾[6] .

فتأمل معى قوله جل شأنه : ﴿ واتبعوا النور الذى أُنزل معه ﴾ إنه القرآن . فالله نور السمٰوات والأرض ، والقرآن نور ، والنبى الذى جاء بالقرآن نور ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾[7] .

فعجباً لأمر الأمة : ربها نور ، وكتابها نور ، ونبيها نور ، كيف ترضىٰ لنفسها أن تعيش فى الظلمات ﴿ فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا والله بما تعملون خبير ﴾[8] .

---

(١) سورة الفتح آية : ٢٨ .
(٢) سورة النساء آية : ١٦٥ .
(٣) سورة القلم آية : ٣ ، ٤ .
(٤) سورة الأنبياء آية : ١٠٧ .
(٥) سورة الأعراف آية : ١٥٦ ، ١٥٧ .
(٦) سورة الأعراف آية : ١٥٨ .
(٧) سورة المائدة آية : ١٥ .
(٨) سورة التغابن آية : ٨ .

وبعد . . . فهذا تفسير للكتاب العزيز ، قصدت به تيسير الطريق لذوى الألباب الباصرة ، وأولى الأفئدة المستنيرة ، لمن أراد أن ينفعه الله بهدى كتابه ﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيرا ﴾(١) ، لا سيما وقد طغت الماديات على المعنويات ، واشتغل الناس بالدنيا ، وارتكبوا فى سبيل تحصيلها وجمع مالها مايندى له جبين الحياء خجلا . فماجت الفتن موج البحر ، وعرضت على القلوب كما تعرض الحصير عوداً عودا ، فأنكرتها قلوب وأشربتها أخرى . فكانت القلوب على قلبين : على أبيض مثل الصفا لا تضره فتنة مادامت السموات والأرض ، وعلى أسود مرباداً مثل الكوزى مجخياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه .

فما المخرج من تلك الفتن ؟ هذا سؤال وجهه الإمام الجليل علىّ بن أبى طالب إلى مبعوث العناية الإلهية وشمس الهداية الربانية محمد ﷺ . قال علىّ رضى الله عنه : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (أما إنها ستكون فتنة . قلت : فما المخرج يارسول الله ؟ قال : كتاب الله تعالى . . فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله تعالى ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله تعالى . وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق من كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه . وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : ﴿ إنا سمعنا قرآناً عجبا * يهدى إلى الرشد فآمنا به ﴾(٢) . من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هُدى إلى صراط مستقيم)(٣) .

فصل فى فضل القرآن والترغيب فى تلاوته

قال الله تعالى : ﴿ إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور * ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور ﴾(٤) .

قال الإمام الشاطبى رحمه الله فى فضل القرآن :

وخير جليس لا يمل حديثه ... وترداده تزداد فيه تجملا
وحيث الفتى يرتاع فى ظلماته ... من القبر يلقاه سنا متهللا
هنالك يهنيه مقيلا وروضة ... ومن أجله فى ذروة العز يجتلى
يناشد فى إرضائه لحبيبه ... وأجدر به سؤلا إليه موصلا

(١) سورة الإسراء آية : ٩ .
(٢) سورة الجن آية : ١ ، ٢ .
(٣) كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال للشيخ علاء الدين على الهندى جـ ١ ص ١٥٦ ، ١٥٧ .
(٤) سورة فاطر آية : ٢٩ ، ٣٠ .

فيـا أيهـا القـارى بـه متمسكـا مُجـلالـه فى كـل حـال مبجـلا
هنيئـا مـريئـا والـداك عـليهـما مـلابس أنـوار من التـاج والحـلَى

ويشرفنا أن نكون من أمة القرآن الذى أمر الله بترتيله ، فقال : ﴿ ورتل القرآن ترتيلا ﴾(١) . . وعلى قارىء القرآن أن يقف عند عجائبه ويحرك به القلوب . فاقرءوا القرآن وابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا .

ولنبى القرآن ﷺ حشد مقدس ومسيرة مباركة من الأحاديث رواها الإمام المنذرى فى كتابه الشهير «الترغيب والترهيب»، رأينا من الخير أن نعطر بها تلك الصفحات ، لأنها تشع نورا وتفيض بركة وسرورا ، وتتقاطر رحمة وحبورا ، وأصحاب الأفئدة المستنيرة وأولو الألباب الباصرة يدركون ذلك بأعين البصائر . قال تعالى : ﴿ قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ﴾(٢) . نسأل الله تعالى أن يجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ونور صدورنا وجلاء همنا وذهاب حزننا .

عن عثمان بن عفان رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (خيركم من تعلم القرآن وعلمه)(٣) . أى أفضلكم الذى جاهد نفسه فى حفظ القرآن ، وفهم معناه وتفسير آياته ثم يعلمه ويوضح مجمله ، ويدعو الناس إلى العمل به .

وكم للقرآن من ثواب جزيل لتاليه ، لو تعلم الأمة حقيقة هذا الثواب ، ما غفلت عن ترتيله وتزكية القلوب به ، وتعطير الألسنة بقراءته . عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول الم حرف ، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف)(٤) .

فأنت ترى فى الحديث الأول أن خيرية العباد مقدورة بتعلم القرآن وتعليمه ، ويرغب النبى ﷺ فى الوعظ والإرشاد ، ويدعو العلماء إلى تعليم المسلمين ، والعمل بأحكام الدين ، والجهاد فى تفهيم الضالين ، والإقناع بالحجة وكثرة الاطلاع .

وترى فى الحديث الثانى أن الله تعالى يعطى ثوابا للقارىء بكل حرف من حروف كلماته حسنة . وفيه فضل قراءة القرآن وكثرة حسناته وزيادة أجره .

ولقد كان أصحاب رسول الله ﷺ فى ميادين الجهاد ، فرسانا بالنهار ، رهبانا بالليل ، إذا جنَّ عليهم الليل سمعت لهم دويا بالقرآن كدوى النحل ، نظر الله إليهم فى جوف الليل وأصلابهم منحنية على أجزاء القرآن ، إذا مرّ أحدهم بآية تبشر بالجنة بكى شوقا إليها ، وإذا مر بآية تنذر من عذاب النار شهق شهقة كأن زفير جهنم فى أذنيه ، ذلك كله لأنهم اتخذوا القرآن هاديا ورائدا ومعلما ومرشدا . مصداقا لقول البارى

(١) سورة المزمل آية : ٤ .
(٢) سورة الأنعام آية : ١٠٤ .
(٣) صحيح البخارى جـ ٦ ص ٢٣٦ ط الشعب ١٣٧٨ .
(٤) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤١ ، ٢٤٢ .

تبارك اسمه : ﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ﴾[١] . وجدوا فيه الدواء والشفاء : ﴿ وننـزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾[٢] . ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ﴾[٣] . ﴿ يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين * قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴾[٤] .

أعلمت ما منازل السكينة والرحمة والملائكة ، وذكر الله فى الملأ الأعلى ؟ إنها فى مجالس القرآن تلاوة ودراسة . عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه فيما بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده)[٥] . ومعنى قوله ﷺ نزلت عليهم السكينة : أى الطمأنينة والوقار والسعادة والقبول ، أما غشيتهم الرحمة أى عمتهم وأحاطت بهم .

ومجالس القرآن شاملة لكل مكان . بهذا نطق الحديث الشريف : (لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل إلا حفتهم الملائكة) . ومعنى ذكرهم الله فيمن عنده أى أثنى عليهم سبحانه فى الملأ الأعلى تنـويها بعلو درجتهم ، وزيادة ثوابهم ، وإخلاصهم لعبادة ربهم ، وذكره جل وعلا . وفيه المكروب يقرأ القرآن ليفرج الله كربه ، والمعسور ليزيل عسره . لأن ذلك أدعى للإجابة وأقرب لنزول رحمة الله .

يعلمنا رسول الله ﷺ انتهاز الفرص لإجابة الدعاء أن تذهب وتتوضأ وتصلى ركعتين لله تعالى ثم تجلس مع صالحين تذكرون الله وتتلون كتابه ، وتفهمون تفسير آياته ، ثم تكثرون من الاستغفار والصلاة على المختار ﷺ ، وحينئذ ينتظر إغداق إحسان الله ونزول رحماته وشمول بركاته .

عن معاوية رضى الله عنه أن رسول ﷺ خرج على حلقة من أصحابه ، فقال : (ما أجلسكم ؟ قالوا : جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ، ومنّ به علينا . قال : آلله ما أجلسكم إلا ذلك ؟ قالوا : آلله ما أجلسنا إلا ذلك . قال : أما إنى لم أستحلفكم تهمة لكم ، ولكنه أتانى جبريل فأخبرنى أن الله عز وجل يباهى بكم الملائكة)[٦] .

فاتقوا الله أيها المسلمون واحرصوا على تعلم القرآن ، وربوا أبناءكم على حفظ آياته تربحوا وتنجحوا ، فهو الذى أخرج الناس من ظلمات الجهل والغى والفساد إلى نور العلم والاستقامة والصلاح ، وسطع نور هديه فى الأكوان ، وظهرت آثار عدله ورحمته فى كل مكان . قال تعالى : ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾[٧] ، نزل به الروح الأمين على سيدنا محمد ﷺ ، فمحا المرادعن القلوب ، وفتحت به نوافذ الفطن ، وأزال الغشى عن الأبصار ، وعنت لعظمته وجوه الفصحاء ،

(١) سورة الإسراء آية : ٩ .
(٢) سورة الإسراء آية : ٨٢ .
(٣) سورة فصلت آية : ٤٤ .
(٤) سورة يونس آية : ٥٧ ، ٥٨ .
(٥) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٢ .
(٦) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٨٠ .
(٧) سورة فصلت آية : ٤٢ .

وتطاحنت لسحر بيانه عزة البلغاء ، فأذعنوا له صاغرين ، وخروا لآيات بلاغته ساجدين ، وأيقنوا أنه تنزيل من رب العالمين .

ومن فضل الله تعالى على أهل القرآن أنه لم يجعل الجزاء الحسن مقصوراً على تاليه ، إنما شمل بمزيد فضله سامعه مادام يلتزم آداب السماع التي أمر الله تعالى بها فى كتابه فقال : ﴿ وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون ﴾[١] . وما أشدَّ حاجة المسلمين إلى معرفة آداب السماع فى مجالس القرآن . إن الأفئدة لتنفطر أسىً وإن القلوب لتنخلع حزنا وإن جبين الحياء ليندى خجلا عندما تسمع القرآن يتلى والجالسون فى غفلة معرضون : ﴿ ما يأتيهم من ذكر من ربهم مُحدَثٍ إلا استمعوه وهم يلعبون * لاهيةً قلوبُهم ﴾[٢] . أليس مما يدعو للأسف أن يقول المستمع للقارىء وهو يتلو قوله تعالى : ﴿ خذوه فغلوه * ثم الجحيم صلوه * ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه ﴾[٣] ، آيات تشيب من هولها نواصى الولدان ، وتقشعر لجلالها الأبدان ، يقول المستمع الغافل «ربنا يزيدك» . ولست أدرى من أى شىء يزيده بعد أن بلغ طول السلسلة سبعون ذراعا ! ومستمع آخر لعله كان نائما واستيقظ على قول القارىء : ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً ﴾[٤] فصاح بأعلى صوته : «اللهم اجعلنا جميعاً منهم» . إنه لا يدرى زمر النار أم زمر الجنة ؟ وهذا دليل على غفلة القلوب . وكما قال شوقى :

لقد أنلتك أذنا غير واعية ورُب مستمع والقلبُ فى صَمم

إن الله تعالى شمل السامع والتالى بعنايته ، إذا التزم كل منهما آداب السماع والتلاوة . عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (من استمع إلى آية من كتاب الله كتبت له حسنة مضاعفة ، ومن تلاها كانت له نورا يوم القيامة)[٥] . واعلم يا أخى أنك إذا شغلت بتلاوة القرآن عن الدعاء فإن الله تعالى يعطيك بفضل القرآن أعظم مما يعطى السائلين ، وهذه إحدى بركات القرآن والاشتغال به ، لأنه أفضل الكلام وأصدق الحديث . بهذا نطق الرسول الكريم . عن أبى سعيد رضى الله عنه قال : (قال رسول الله ﷺ : يقول الرب تبارك وتعالى : من شغله القرآن عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين ، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه)[٦] .

واعلم بأن الناس مع القرآن أربعة أنواع من حيث القراءة والعمل . وقد جاء ذلك التقسيم رائعا وبديعاً فى قول رسول الله ﷺ : (مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأترجة ريحها طيب ، وطعمها طيب ، ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التمرة لا ريح لها ، وطعمها طيب ، ومثل الفاجر الذى يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب ، وطعمها مر ، ومثل الفاجر الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمُها مر ولا ريح لها ، ومثل الجليس الصالح كمثل صاحب المسك ، إن لم يصبك منه شىء أصابك من ريحه ، ومثل

(١) سورة الأعراف آية : ٢٠٤ .
(٢) سورة الأنبياء الآيتان : ٢ ، ٤ .
(٣) سورة الحاقة الآيات : ٣٠ - ٣٢ .
(٤) سورة الزمر آية : ٧١ .
(٥) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٢ .
(٦) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

الجليس السوء كمثل صاحب الكير إن لم يصبك من سواده أصابك من دخانه)[١] . والمقصود بالأترجة التى تجمع طيب الطعم والريح : كالتفاحة . وجاء فى الفتح : أن التمثيل وقع بالذى يقرأ القرآن ، ولا يخالف ما اشتمل عليه من أمر ونهى لا مطلق التلاوة . وفى هذا الحديث بيان فضيلة القرآن والدعوة إلى العمل به . جاء فى عمدة القارى أن كلام الله المجيد له تأثير فى باطن العبد وظاهره ، وأن العباد متفاوتون فى ذلك ، فمنهم من له النصيب الأوفر من ذلك التأثير ، وهو المؤمن القارىء ، ومنهم من لا نصيب له البتة ، وهو المنافق الحقيقى ، ومنهم من تأثر ظاهره دون باطنه ، وهو المرائى أو بالعكس وهو المؤمن الذى لم يقرأه ، وإبراز هذه المعانى وتصويرها فى المحسوسات ما هو مذكور فى الحديث ، ولم يجد ما يوافقها ويلائمها أقرب ، ولا أحسن ولا أجمع من ذلك لأن المشبهات والمشبه بها واردة على تقسيم الحاضر ، لأن الناس إما مؤمن أو غير مؤمن ، والثانى إما منافق صرف أو ملحق به . فعلى هذا قس الثمار المشبه بها ، ووجه الشبه فى المذكورات مركب منتزع من أمرين محسوسين : طعم وريح . وقد ضرب النبى ﷺ المثل بما تنبته الأرض ويخرجه الشجر للمشابهة التى بينها وبين الأعمال ، فإنها من ثمرات النفوس ، فخص ما يخرجه الشجر من الأترجة والثمرة بالمؤمن ، وبما تنبته الأرض من الحنظلة والريحانة بالمنافق تنبيها على علو شأن المؤمن ، وارتفاع علمه ودوام ذلك ، وتوقيفا على ضعة شأن المنافق وإحباط عمله وقلة جدواه .

شىء بديع يكسب قارىء القرآن : نفحات صمدية وبركات إلهية صادرة من تلاوة كلام رب العالمين . فأفاد ﷺ أن قارىء القرآن رائحته ذكية ، ومنافعه جليلة وقربه رحمة ، ومصاحبته طاعة ومودته رضوان وكلامه مثمر . وفيه الحث على الإنصات والاستماع ، وتخلق القارىء بمكارم الأخلاق . وإذا قرأ العاصى القرآن فكالوردة رائحتها ذكية ولا تؤكل . فتمر نفحات عطرية من فيه وهو غير عامل بما يقرأ ، فيستفيد السامع المنصت فقط ، ومن يرضى أن يكون ريحانة لغيره محروما من شمها ، فاقدا عطرها بعيدا عن ثمرها ؟ .

وكذا العاصى الذى لا يقرأ ولا يسمع ، فكالشجرة المرة كريهة الطعم معدومة الرائحة . فلا حول ولا قوة إلا بالله . . فعليك يا أخى بالإنصات إلى القرآن ، والتأمل فى آياته ، وأن تقرأ ما تيسر منه عسى أن تشملك رحمة الله جل جلاله . قال تعالى : ﴿ فاقرءوا ما تيسر من القرآن ﴾[٢] ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾[٣] . ولا تيأس من قراءة القرآن إن كان شاقا على لسانك ، بل عليك أن تجاهد اللسان بقراءة آياته المحكمة ، فإن كثرة قراءته تيسر تلاوته . قال جل شأنه : ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾[٤] . واعلم بأن الله يعطى الثواب على قدر المشقة . فإذا ما صرت ماهرا بتلاوته فلك عند الله درجة السفرة الكرام البررة . بهذا نطق الحديث الشريف . قال ﷺ : (الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ، والذى يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران)[٥] .

---

(١) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٣ .
(٢) سورة المزمل آية ٢٠ .
(٣) سورة الزمر آية : ١ .
(٤) سورة القمر آية : ١٧ .
(٥) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ .

ومن الوصايا النبوية العالية ، الوصية بتلاوة القرآن . إذ أن تلاوته نور وذخر . قال أبو ذر رضى الله عنه : قلت يا رسول الله أوصنى . قال : (عليك بتقوى الله فإنها رأس الأمر كله . قلت : يا رسول الله زدنى . قال : عليك بتلاوة القرآن ، فإنها نور لك فى الأرض ، وذخر لك فى السماء)[١] .

وليس فضل القرآن مقصورا على الدنيا ، بل يتعدى ذلك إلى يوم الحشر ، يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه . قال ﷺ : (القرآن شافع مشفع ، وماحل مصدق ، من جعله أمامه قاده إلى الجنة ، ومن جعله خلف ظهره ساقه إلى النار)[٢] . وقال أيضا صلوات ربى وسلامه عليه : (اقرءوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعا لأصحابه)[٣] .

بل إن هذا الفضل لا يقتصر على قارىء القرآن وحده ، بل يتعداه إلى والديه ، حيث نبهنا إلى ذلك الرسول الكريم بقوله : (من قرأ القرآن وعمل به ألبس والداه تاجا يوم القيامة ضوؤه أحسن من ضوء الشمس فى بيوت الدنيا) . فما ظنكم بالذى عمل بهذا ؟

إن أقصى ما يتمناه العبد هو رضا الله ، فيوم يبلغ هذه المكانة فقد حيزت له السعادة الأبدية . قال أحد الصالحين يناجى ربه :

رضاك خير من الدنيا وما فيها ... يا مالك النفس قاصيها ودانيها
فليس للنفس آمال تحققها ... سوى رضاك فذا أقصى أمانيها
فنظرة منك يا سؤلى ويا أملى ... خير إلىّ من الدنيا وما فيها

أتعلم ما هى الوسيلة لبلوغ رضا الله ؟ إنه ذلك القرآن . فمن أفضاله يوم الحشر أنه يسأل ربه الرضا لصاحبه فيؤتيه الله سؤله . انصت معى فى خشوع وجلال إلى هذا الحديث الشريف ، عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (يجىء صاحب القرآن يوم القيامة ، فيقول القرآن : يارب حله فيلبس تاج الكرامة ثم يقول : يارب زده فيلبس حلة الكرامة ، ثم يقول : يارب ارض عنه فيرضى عنه ، فيقال له : اقرأ وارق ، ويزداد بكل آية حسنة)[٤] .

ومن أفضال القرآن يوم الحشر أنه يصعد بصاحبه فى درج الجنة على قدر ما يحفظ . فكلما قرأ آية صعد بها درجة . فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (يقال لصاحب القرآن اقرأ وارق ، ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا ، فإن منزلك عند آخر آية تقرؤ ها)[٥] .

قال الخطابى : « جاء فى الأثر أن عدد آى القرآن على قدر درج الجنة ، فيقال للقارىء ارق فى الدرج على قدر ما كنت تقرأ من آى القرآن ، فمن استوفى قراءة جميع القرآن استولى على أقصى درج الجنة فى الآخرة ، ومن قرأ جزءا منه كان رقيه فى الدرج على قدر ذلك فيكون منتهى الثواب عند منتهى القراءة »[٦] .

---

(١) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٤ .
(٢) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٤ .
(٣) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٤ .
(٤) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٥ .
(٥) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٥ .
(٦) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٥ .

وأفضل ما يتجلى به القرآن على أصحابه يوم الفزع الأكبر ﴿ يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾[١] . إنه يوم ما أطوله ، وياله من خطب ما أهوله ، وياله من جبار ما أعدله ، فى هذا اليوم اختص الله ثلاثة أنواع من عباده ، لا يحزنهم الفزع الأكبر ، ولا تهولهم تلك الشدائد ، منهم صاحب القرآن الذى يتلوه ويؤم الناس به وهم راضون عنه . وإليك هذه الأنواع الثلاثة كما بينها الصادق المعصوم . عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (ثلاثة لا يهولهم الفزع الأكبر ، ولا ينالهم الحساب ، هم على كثيب من مسك حتى يُفرغ من حساب الخلائق : رجل قرأ القرآن ابتغاء وجه الله وأم به قوما وهم به راضون . وداع يدعو إلى الصلوات ابتغاء وجه الله . وعبد أحسن فيما بينه وبين ربه ، وفيما بينه وبين مواليه)[٢] .

ما أجمل أن يشبه الرسول ﷺ صاحب القرآن بجراب محشو مسكا ، يفوح شذاه فيملأ المكان طيبا تنشقه القلوب والأرواح ، ويفيض على الناس عبيرا فواحا وأريجا يبعث فى النفس طمأنينة وسكينة . فاستمع معى إلى حث رسول الإسلام على قراءة القرآن . عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : (بعث رسول الله ﷺ بعثا وهم ذوو عدد فاستقرأهم فاستقرأ كل رجل منهم يعنى ما معه من القرآن ، فأتى على رجل من أحدثهم سنا ، فقال : ما معك يافلان ؟ قال : معى كذا وكذا وسورة البقرة ، فقال : أمعك سورة البقرة ؟ قال : نعم . قال : اذهب فأنت أميرهم ، فقال رجل من أشرافهم : والله ما منعنى أن أتعلم البقرة إلا خشية ألا أقوم بها ، فقال رسول الله ﷺ : تعلموا القرآن واقرءوه ، فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه كمثل جراب محشو مسكا يفوح ريحه فى كل مكان ، ومن تعلمه فيرقد وهو فى جوفه فمثله كمثل جراب أوكىء على مسك)[٣] .

لو علمت فضل القرآن فى محكمة العدل الإلهية الكبرى يوم القيامة مّا غفلت عن قراءته ، وما اشتغلت عن نوره وبركاته ، ولظلت أضواؤه متصلة بقلبك ووجدانك ، إنه يقوم بدور الشفيع لك عند الواحد القهار ، ويؤدى فى محكمة الله شهادة يقبلها العليم الخبير فيك ، أتدرى ما هى ؟ إنه أسهرك الليالى مما جعل النوم يجفوك مصداقا لقول الله : ﴿ إن المتقين فى جنات وعيون * آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين * كانوا قليلا من الليل ما يهجعون * وبالأسحار هم يستغفرون ﴾[٤] .

فاستمع معى إلى نص هذا الخبر : عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : (الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة ، يقول الصيام : أى رب منعته الطعام والشهوة فشفعنى فيه . ويقول القرآن : منعته النوم بالليل فشفعنى فيه . قال : فيشفعان)[٥] .

لقد تأخذك الدهشة ويستولى عليك العجب عندما تشاهد هذا المنظر البديع الذى يصوره لنا الصحابى الجليل «أسيد بن حضير» وهو يقصه على صاحب الرسالة العصماء ﷺ ، والرسول يأمره أن يقرأ ، وقد استحضر أسيد الصورة كاملة . إنه مشهد قرآنى رائع ومقام نورانى كريم . إن الملائكة تستمع إلى أسيد وهو

---

(١) سورة الحج آية : ٢ .
(٢) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٦ .
(٣) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٦ .
(٤) سورة الذاريات الآيات : ١٥ - ١٨ .
(٥) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٧ .

يقرأ ، بل إن فرسه يضطرب من خشية الله حتى كادت أرجل الفرس تطأ ابنه يحيى ، وها هو ذا أسيد أمام رسول الله يقص عليه ما رآه رأى العين :

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن أسيد بن حضير بينما هو فى ليلة يقرأ فى مِرْبَدِه(١) إذ جالت(٢) فرسه ، فقرأ ثم جالت أخرى ، فقرأ ثم جالت أخرى أيضا . قال أسيد : فخشيت أن تطأ يحيى فقمت إليها ، فإذا مثل الظلة فوق رأسى فيها أمثال السُّرُج عرجت(٣) فى الجو حتى ما أراها ، قال : فغدوت على رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله بينما أنا البارحة فى جوف الليل أقرأ فى مربدى إذ جالت فرسى ، فقال رسول الله ﷺ : اقرأ ابن حضير . قال فقرأت ثم جالت أيضاً ، فقال رسول الله ﷺ : اقرأ ابن حضير . قال فقرأت ثم جالت أيضا ، ثم قال رسول الله ﷺ : اقرأ ابن حضير ، قال : فانصرفت وكان يحيى قريبا منها خشيت أن تطأه ، فرأيت مثل الظلة فيها أمثال السرج عرجت فى الجو حتى ما أراها ، فقال رسول الله ﷺ : تلك الملائكة تستمع لك ، ولو قرأت لأصبحت يراها الناس ما تستتر منهم)(٤) . رواه البخارى ومسلم واللفظ له. ورواه الحاكم بنحوه باختصار ، وقال فيه : (فالتفت فإذا أمثال المصابيح مدلاة بين السماء والأرض ، فقال : يا رسول الله ما استطعت أن أمضى ، فقال : تلك الملائكة نزلت لقراءة القرآن ، أما إنك لو مضيت لرأيت العجائب)(٥) .

لو علمت ميزان القرآن فى العمل وما له من فوائد تعود على تاليه المخلص فى تلاوته ، لعلمت أن هناك كنزا يدخره الله لك يوم تلقاه ، فى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم . إن لك بكل حرف تتلوه من القرآن حسنة ، وإنها لحسنة مضاعفة أى بعشر أمثالها . فقف عند هذا الحديث منصتا بأذن قلبك لتنال من بركاته وأنواره . عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : (إن هذا القرآن مأدبة الله فأقبلوا إلى مأدبته ما استطعتم ، إن هذا القرآن حبل الله . والنور المبين ، والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن اتبعه ، لا يزيغ فيُستعتب ، ولا يعوج فيُقوَّم ، ولا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق من كثرة الرد ، اتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته كل حرف عشر حسنات ، أما إنى لا أقول الم حرف ولكن ألِفٌ حرف ولامٌ حرف وميمٌ حرف)(٦) .

هل علمت أن بركة القرآن كما شملت والديك يا قارىء القرآن فإنها تمتد إلى أكثر من ذلك ، إن للقرآن شفاعة تجعل لقارئه بركة تعم عشرة من أهل بيته كل قد وجبت له النار ، وما أدراك ما تلك الشفاعة ؟ إن فيها النجاة من نار وقودها الناس والحجارة وكفى بالنجاة فضلا ، وكفى بالشفاعة منقذا . هلا سمعت إلى قول الصادق المعصوم : (من قرأ القرآن فاستظهره فأحل حلاله وحرم حرامه أدخله الله به الجنة وشفعه فى عشرة من أهل بيته كلهم قد وجبت لهم النار)(٧) .

(١) مربده : المربد الموضع الذى تحبس فيه الإبل والغنم .
(٢) جالت فرسه : أى دارت وانزعجت .
(٣) السرج عرجت : المصابيح صعدت .
(٤) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٧ .
(٥) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٧ .
(٦) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٨ .
(٧) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٩ .

ونختتم هذا الفصل بقوله ﷺ : (من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين[١])[٢] .

فصل فى حرمة القرآن وآداب تلاوته وحقوقه على قارئه

هل علمت يا حامل القرآن وقارئه ما حرمة هذا الكتاب ؟ وما يلزمك من أدب عند قراءته ؟

يقول القرطبى : قال الحكيم الترمذى أبو عبد الله فى «نوادر الأصول» :

* فمن حرمة القرآن ألا يمسه القارىء له إلا طاهرا . ومن حرمته أن يقرأه وهو على طهارة . ومن حرمته أن يستاك ويتخلل ، فيطيب فمه إذ هو طريقه . قال يزيد بن أبى مالك : إن أفواهكم طرق من طرق القرآن ، فطهروها ، ونظفوها ما استطعتم .
* ومن حرمته أن يلبس نظيفا كما يلبس للدخول على الأمير ، لأنه مناج ربه .
* ومن حرمته أن يستقبل القبلة لقراءته . . وكان «أبو العالية» إذا قرأ اعتمّ (أى لبس العمامة) ، ولبس وارتدى واستقبل القبلة .
* ومن حرمته أن يتمضمض كلما تنخع . . روى شعبة عن أبى حمزة عن ابن عباس : أنه كان يكون بين يديه ماء ، إذا تنخع تمضمض ، ثم أخذ فى الذكر ، وكان كلما تنخع تمضمض .
* ومن حرمته إذا تثاءبت وأنت تقرأ القرآن فأمسك عن القراءة تعظيما حتى يذهب تثاؤبك . قال عكرمة : يريد أن فى ذلك الفعل إجلالا للقرآن .
* ومن حرمته أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم عند ابتدائه للقراءة ، ويقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم إن كان ابتداء قراءته من أول السورة أو من حيث بلغ .
* ومن حرمته إذا أخذ فى القراءة لم يقطعها ساعة فساعة بكلام الآدميين من غير ضرورة .
* ومن حرمته أن يخلو بقراءته ، حتى لا يقطع عليه أحد بكلام فيخلطه بجوابه ، لأنه إذا فعل ذلك زال عنه سلطان الاستعاذة الذى استعاذ منه فى البدء .
* ومن حرمته أن يقرأه على تؤدة وترسيل وترتيل .
* ومن حرمته أن يستعمل فيه ذهنه وفهمه حتى يعقل ما يخاطب به .
* ومن حرمته أن يقف على آية (الوعد) فيرغب إلى الله تعالى ويسأله من فضله ، وأن يقف على آية (الوعيد) فيستجير بالله منه .
* ومن حرمته أن يقف على أمثاله ، فيتمثلها ، وأن يلتمس غرائبه .
* ومن حرمته أن يؤدى لكل حرف حقه من الأداء ، حتى يبرز الكلام باللفظ تماما ، فإن له بكل حرف عشر حسنات .

---

(١) من المقنطرين : أى ممن كتب له قنطار من الأجر .

(٢) الترغيب والترهيب جـ ٢ ، ص ٢٧١ .

* ومن حرمته إذا انتهت قراءته أن يصدق ربه ، ويشهد بالبلاغ لرسوله ﷺ ويشهد على ذلك أنه حق ، فيقول : «صدقت ربنا وبلّغ رسولك ونحن على ذلك من الشاهدين ، اللهم اجعلنا من شهداء الحق ، القائمين بالقسط» ثم يدعو بما شاء من الدعاء .
* ومن حرمته إذا قرأه ألا يلتقط الآى من كل سورة فيقرأ ، فإنه روى عن رسول الله ﷺ (أنه مر ببلال وهو يقرأ من كل سورة شيئا ، فأمره أن يقرأ على السور ، أو كما قال)[١] .
* ومن حرمته إذا وضع الصحيفة ألا يتركه منشورا ، وألا يضع فوقه شيئا من الكتب حتى يكون أبدا عاليا لسائر الكتب ، علما كان أو غيره .
* ومن حرمته أن يضعه فى حجره إذا قرأه ، أو على شىء بين يديه ، ولا يضعه بالأرض .
* ومن حرمته إذا غسله بالماء أن يتوقى النجاسات من المواضع التى توطأ ، فإن لتلك الغسالة حرمة ، وكان من قبلنا من السلف الصالح يستشفى بغسالته .
* ومن حرمته ألا يتخذ الصحيفة إذا بليت ودرست وقاية للكتب ، فإن ذلك جفاء عظيم .
* ومن حرمته ألا يخلى يوما من أيامه من النظر فى المصحف ولو مرة . وكان أبو موسى يقول : إنى لأستحيى ألا أنظر كل يوم فى عهد ربى مرة !
* ومن حرمته أن يعطى عينيه حظهما منه ، فإن العين تؤدى إلى النفس ، وبين النفس والصدر حجاب ، والقرآن فى الصدر : فإذا قرأه عن ظهر قلب ، فإنما يسمع أذنه فتؤدى إلى النفس ، فإذا نظر فى الخط ، كانت العين والأذن قد اشتركتا فى الأداء وذلك حرى للأداء ، وكان قد أخذت العين حظها كالأذن .

روى زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : (اعطوا أعينكم حظها من العبادة . قالوا : يا رسول الله وما حظها من العبادة ؟ قال : النظر فى المصحف والتفكر فيه ، والاعتبار عند عجائبه)[٢] .

وروى مكحول عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : (أفضل عبادة أمتى قراءة القرآن نظراً)[٣] .

* ومن حرمته ألا يتأوله عندما يعرض له شىء من أمر الدنيا . . حدثنا عمرو بن زياد الحنظلى ، قال حدثنا هشيم بن بشير ، عن المغيرة عن إبراهيم ، قال : كان يكره أن يتأول شىء من القرآن عندما يعرض له شىء من أمر الدنيا . والتأويل مثل قولك للرجل إذا جاءك ﴿ جئت على قدر يا موسى ﴾[٤] ومثل قوله تعالى : ﴿ كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية ﴾[٥] ، يقال هذا عند حضور الطعام ، وأشباه ذلك .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١ ص ٢٤ ط الشعب .
(٢) الجامع الصغير فى أحاديث البشير النذير جـ ١ ص ١٧٥ ط دار الفكر .
(٣) تفسير القرطبى جـ ١ ص ٢٤ ط الشعب .
(٤) سورة طه آية : ٤٠ .
(٥) سورة الحاقة آية : ٢٤ .